الباب التاسع والخمسون

فى الإرشادات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز

قد كثر الاشتباه بين الحال والمقام، واختلفت إشارات الشيوخ فى ذلك.

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله، قال: أخبرنا أبو منصور بن خيزون إجازة، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن على بن محمد الجوهرى إجازة، قال أخبرنا أبو عمرو محمد بن العباس بن محمد، قال: أخبرنا أبو محمد يحيى بن صاعد، قال: أخبرنا الحسين بن الحسن المروزى، قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك، قال: أخبرنا الهيثم بن جميل، قال: أخبرنا كثير بن سليم المدائنى قال: سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه قال: أتى النبى ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، إنى رجل ذرب اللسان، وأكثر ذلك على أهلى؛ فقال له رسول الله ﷺ: «أين أنت من الاستغفار؟ فإنى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرّة».

وروى أبو هريرة رضى الله عنه فى حديث آخر «فإنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى كل يوم مائة مرّة»[١].

وروى أبو بردة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم مائة مرة»[٢].

وقال الله تعالى ﴿وَتُوبُوا إلى اللهِ جَميعًا أيُه الْمُؤمِنُونَ لَعَلكُمْ تُفْلِحُون﴾[٣] وقال الله عز وجل ﴿إن اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[٤].

وقال الله تعالى ﴿يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إلى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾[٥].

التوبة أصل كل مقام، وقوام كل مقام، ومفتاح كل حال.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن ماجه.

(٣) آية ٢٢ من سورة البقرة .

(٤) آية رقم ٣١ من سورة النور.

(٥) آية رقم ٨ من سورة التحريم.

وهى أوَّل المقامات، وهى بمثابة الأرض للبناء، فمن لا أرض له لا بناء له، ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له؛ وإنّى بمبلغ علمى وقدر وسعى وجهدى اعتبرت المقامات والأحوال وثمرتها فرأيتها يجمعها ثلاثة أشياء، بعد صحة الإيمان وعقوده وشروطه، فصارت مع الإيمان أربعة.

ثم رأيتها فى إفادة الولادة المعنوية الحقيقية بمثابة الطبائع الأربع التى جعلها الله تعالى بإجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية، ومن تحقّق بحقائق هذه الأربع يلج ملكوت السموات، ويكاشف بالقَدر والآيات، ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى المنزَّلات، ويحظى بجميع الأحوال والمقامات، فكلها من هذه الأربع ظهرت، وبها تهيأت وتأكدت، فأحَدُ الثلاثِ بعد الإيمان: التوبةُ النصوح، والثانى: الزهد فى الدنيا.

والثالث: تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرًا وباطنًا من الأعمال القلبية والقالبية من غير فتور وقصور.

ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها، وهى:

قلّة الكلام، وقلّة الطعام، وقلّة المنام، والاعتزال عن الناس.

واتفق العلماء الزاهدون والمشايخ على أن هذه الأربع بها تستقر المقامات وتستقيم الأحوال، وبها صار الأبدال أبدالاً بتأييد الله تعالى وحسن توفيقه.

وتبيَّن بالبيان الواضح أن سائر المقامات تندرج فى صحة هذه، ومن ظفر بها فقد ظفر بالمقامات كلها، أولها - بعد الإيمان - : التوبة، وهى فى مبدأ صحتها تفتقر إلى أحوال، وإذا صحَّت تشتمل على مقامات وأحوال، ولابدّ فى ابتدائها من وجود زاجر، ووجدان الزاجر حالٌ، لأنه موهبة من الله تعالى على ما تقرر أن الأحوال مواهب. وحال الزاجر مفتاح التوبة ومبدؤها.

قال رجل لبشر الحافى: مالى أراك مهمومًا؟ قال: لأنى ضَال ومطلوب: ضللت الطريق والمقصد، وأنا مطلوب به، ولو تبينت كيف الطرق إلى المقصد لطلبت، ولكن سنة الغفلة أدركتنى وليس منها خلاص إلا أن أزجر فأنزجر.

وقال الأصمعى: رأيت أعرابيًا بالبصرة يشتكى عينيه، وهما يسيل منهما الماء، فقلت له: ألاَ تمسح عينيك؟ فقال: لا؛ لأن الطبيب زجرنى، ولا خير فيمن لا ينزجر.

فالزاجر فى الباطن حال يهبها الله تعالى. ولابدَّ وجودها للتائب. ثم بعد الانزجار يجد العبد حال الانتباه.

قال بعضهم: من لزم مطالعة الطوارق انتبه.

وقال أبو يزيد: علامة الانتباه خمس: إذا ذكر نفسه افتقر، وإذا ذكر ذنبه استغفر، وإذا ذكر الدنيا اعتبر، وإذا ذكر الآخرة استبشر، وإذا ذكر المولى اقشعر.

وقال بعضهم: الانتباه أوائل دلالات الخير؛ إذا انتبه العبد من رقدة غفلته أدّاه ذلك الانتباه إلى التيقظ، فإذا تيقّظ ألزمه تيقظُه الطلبَ لطريق الرشد فَيطلُب. وإذا طَلب عرف أنه على غير سبيل الحق، فيطلُب الحق، ويرجع إلى باب توبته، ثم يعطى بانتباهه حال التيقّظ.

قال فارس: أوفى الأحوال التيقظ والاعتبار، وقيل: التيقظ تبيان خط المسلك بعد مشاهدة سبيل النجاة.

وقيل: إذا صحّت اليقظة كان صاحبها فى أوائل طريق التوبة.

وقيل: اليقظة طردةٌ[1] من جهة المولى لقلوب الخائفين تدلّهم على طلب التوبة.

فإذا تمت يقظته نُقل بذلك إلى مقام التوبة، فهذه أحوال ثلاثة تتقدّم التوبة.

ثم التوبة فى استقامتها تحتاج إلى المحاسبة، ولا تستقيم التوبةُ إلا بالمحاسبة.

نُقل عن أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه أنه قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الأكبر على الله ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[2]. من جهة المولى لقلوب الخائفين تدلّهم على طلب التوبة.

فإذا تمت يقظته نُقل بذلك إلى مقام التوبة، فهذه أحوال ثلاثة تتقدّم التوبة.

ثم التوبة فى استقامتها تحتاج إلى المحاسبة، ولا تستقيم التوبةُ إلا بالمحاسبة.

نُقل عن أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه أنه قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الأكبر على الله. ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[3].

---

(١) وفى نسخة: خردة والطردة الدفعة.

(٢) آية رقم ١٨ من سورة الحاقة.

(٣) آية رقم ١٨ من سورة الحاقة.

obeikandi.com

فالمحاسبة بحفظ الأنفاس، وضبط الحواس، ورعاية الأوقات، وإيثار المهمات.

ويعلم العبد أن الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس فى اليوم والليلة رحمةً منه، لعلمه سبحانه بعبده واستيلاء الغفلة عليه، كى لا يستعبده الهوى وتسترقه الدنيا.

فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس إلى مواطن العبودية لأداء حق الربوبية.

ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة إلى صلاة أخرى.

ويسِدُّ مداخل الشيطان بحسن المحاسبة والرعاية.

ولا يدخل فى الصلاة إلا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار؛ لأن كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تنكت فى القلب نكتة سوداء وتعقد عليه عقدة، والمتفقِّد المحاسب يهيئ الباطن للصلاة بضبط الجوارح، ويحقق مقام المحاسبة، فيكون عند ذلك لصلاته نور يشرق على أجزاء وقته إلى الصلاة الأخرى، فلا تزال صلاته منوِّرة تامة بنور وقته، ووقته منورًا معمورًا بنور صلاته.

وكان بعض المحاسبين يكتب الصلوات فى قرطاس، ويَدَع بين كل صلاتين بياضًا، وكلما ارتكب خطيئة من كلمة غيبة أو أمر آخر خطَّ خطًا، وكلما تكلَّم أو تحرَّك فيما لا يعنيه نقط نقطة، ليعتبر ذنوبه وحركاته فيما لا يعنيه لتضيِّق المحاسبةُ مجارى الشيطان والنفس الأمارة بالسوء لموضع صدقه فى حسن الافتقاد وحرصه على تحقيق مقام العباد، وهذا مقام المحاسبة والرعاية يقع من ضرورة صحة التوبة.

قال الجنيد: من حسنت رعايته دامت ولايته.

وسئل الواسطى: أى الأعمال أفضل؟ قال: مراعاة السرّ، والمحاسبة فى الظاهر، والمراقبة فى الباطن ويكمل أحدهما بالآخر، وبهما تستقيم التوبة.

والمراقبة والرعاية حالان شريفان، ويصيران مقامين شريفين يصحَّان بصحة مقام التوبة، وتستقيم التوبة على الكمال بهما، فصارت المحاسبة والمراقبة والرعاية من ضرورة مقام التوبة.

أخبرنا أبو زرعة، إجازة، عن ابن خلف أبى بكر الشيرازى قال: سمعت أبا عبد الرحمن السلمى يقول: سمعت الحسن الفارسىّ يقول: سمعت الجريرى يقول: أمرنا هذا مبنىّ على فصلين: وهو أن تُلزم نفسك المراقبة لله تعالى، ويكون العلم على ظاهرك قائمًا.

وقال المرتعش: المراقبة مراعاة السرّ لملاحظة الحق فى كل لحظة ولفظة. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[1] وهذا هو علم القيام.

وبذلك يتمُّ علم الحال. ومعرفةُ الزيادة والنقصان: وهو أن يعلم معيار حاله فيما بينه وبين الله، وكلٍ هذا ملازم لصحّة التوبة، وصحة التوبة ملازم لها، لأن الخواطر مقدِّمات العزائم، والعزائم مقدِّمات الأعمال لأن الخواطر تحقق إرادة القلب، والقلب أمير الجوارح، ولا تتحرك الجوارح إلا بتحرك القلب بالإرادة، وبالمراقبة حسم مواد الخواطر الرديئة، فصار من تمام المراقبة التوبةُ؛ لأن مَن حصر الخواطر كفى مؤونة الجوارح؛ لأن بالمراقبة اصطلام[2] عروق إرادة المكاره من القلب، وبالمحاسبة استدراك ما انفلت من المراقبة.

أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف، عن السلمى، قال: سمعت أبا عثمان المغربى يقول: أفضل ما يلزم الإنسان فى هذا الطريق المحاسبة وسياسة العمل بالعلم، وإذا صحَّت التوبة صحت الإنابة.

قال إبراهيم بن أدهم: إذا صدق العبد فى توبته صار منيبًا؛ لأن الإنابة ثانى درجة التوبة.

وقال أبو سعيد القرشى: المنيب: الراجع عن كل شىء يشغله عن الله إلى الله.

قال بعضهم: الإنابة الرجوع منه إليه، لا من شىء غيره، فمن رجع من غيره إليه ضيَّع أحد طرفى الإنابة.

والمنيب على الحقيقة: من لم يكن له مرجع سواه، فيرجع إليه من رجوعه، ثم يرجع من رجوع رجوعه، فيبقى شبحًا لا وصف له قائمًا بين يدى الحق، مستغرقًا فى عين الجمع ومخالفة النفس، ورؤية عيوب الأفعال.

والمجاهدة تتحقق بتحقيق الرعاية والمراقبة.

قال أبو سليمان: ما استحسنت من نفسى عملاً فأحتسبه.

وقال أبو عبد الله السجزى: من استحسن شيئًا من أحواله فى حال إرادته فسدت عليه إرادته، لا أن يرجع إلى ابتدائه فيروّض نفسه ثانيًا، ومن لم يزن نفسه بميزان الصدق فيما له وعليه لا يبلغ مبلغ الرجال.

---

(١) آية رقم ٣٣ من سورة الرعد.

(٢) الاصطلام: الاجتماع.

ورؤية عيوب الأفعال من ضرورة صحة الإنابة، وهو فى تحقيق مقام التوبة، ولا تستقيم التوبة إلا بصدق المجاهدة، ولا يصدق العبد فى المجاهدة إلا بوجود الصبر.

وروى فضالة بن عبيد، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المجاهد من جاهد نفسه»[1] ولا يتم ذلك إلا بالصبر وأفضل الصبر الصبرُ على الله: بعكوف الهمّ عليه. وصدق المراقبة بالقلب، وحسم مواد الخواطر. والصبر ينقسم إلى: فرض، وفضل، فالفضل كالصبر على أداء المفترضات، والصبر عن المحرَّمات.

ومن الصبر الذى هو فضل: الصبر على الفقر، والصبر عند الصدمة الأولى، وكتمان المصائب والأوجاع، وترك الشكوى والصبر على إخفاء الفقر، والصبر على كتم المنح والكرامات، ورؤية العبر والآيات.

ووجوه الصبر – فرضًا وفضلاً – كثيرة، وكثير من الناس من يقوم بهذه الأقسام من الصبر ويضيق عن الصبر على الله بلزوم صحة المراقبة والرعاية ونفى الخواطر.

فإذن حقيقة الصبر كائنة فى التوبة كينونة المراقبة فى التوبة، والصبر من أعزّ مقامات الموقنين، وهو داخل فى حقيقة التوبة.

قال بعض العلماء: أى شىء أفضل من الصبر، وقد ذكره الله تعالى فى كلامه فى نيّف وتسعين موضعًا! ! وما ذكر شيئًا بهذا العدد.

وصحة التوبة تحتوى على مقام الصبر مع شرفه.

ومن الصبر: الصبر على النعمة؛ وهو أن لا يصرفها فى معصية الله تعالى. وهذا أيضًا داخل فى صحة التوبة.

وكان سهل بن عبد الله يقول: الصبر على العافية أشدّ من الصبر على البلاء.

وروى عن بعض الصحابة: بُلينا بالضرَّاء فصبرنا، وبُلينا بالسرَّاء فلم نصبر.

ومن الصبر: رعاية الاقتصاد فى الرضا والغضب، والصبر عن محمدة الناس، والصبر على الخمول.

والتواضعُ والذلُّ: داخل فى الزهد، وإن لم يكن داخلاً فى التوبة.

وكلّ ما فات من مقام التوبة من المقامات السنيَّة، والأحوال وُجد فى الزهد، وهو ثالث الأربعة التى ذكرناها.

---

(١) رواه الدارقطنى والطبرانى.

وحقيقة الصبر تظهر من طمأنينة النفس، وطمأنينتها من تزكيتها، وتزكيتها بالتوبة؛ فالنفس إذا تركّت بالتوبة النصوح زالت عنها الشراسة الطبيعية، وقلّة الصبر من وجوه الشراسة للنفس وإبائها واستعصائها.

والتوبةُ النصوح تلين النفس، وتخرجها من طبيعتها وشراستها إلى اللين؛ لأن النفس بالمحاسبة والمراقبة تصفو وتنطفئ ميزانها المتأججة بمتابعة الهوى. وتبلغ بطمأنينتها محل الرضا ومقامه، وتطمئن فى مجارى الأقدار.

قال أبو عبد الله البناجى: لله عباد يستحيون من الصبر، ويتلقّفون مواضع أقداره بالرضا تلقفًا.

وكان عمر بن عبد العزيز يقول: أصبحت ومالى سرورٌ إلا مواقع القضاء: قال رسول الله ﷺ لابن عباس حين أوصاه: «اعمل لله باليقين فى الرضا، فإن لم يكن فإن فى الصبر خيرًا كثيرا»[1].

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ «من خير ما أعطى الرجل: الرضا بما قسم الله تعالى له».

فالأخبار والآثار والحكايات فى فضيلة الرضا وشرفه أكثر من أن تُحصى. والرضا ثمرة التوبة النَّصوح.

وما تخلّف عبد عن الرضا إلا بتخلّفه عن التوبة النصوح.

فإذن تجمع التوبة النصوح: حال الصبر، ومقام الصبر، وحال الرضا، ومقام الرضا.

والخوف والرجاء مقامان شريفان من مقامات أهل اليقين، وهما كائنان فى صلب التوبة النصوح؛ لأن خوفه حمله على التوبة، ولولا خوفه ما تاب، ولولا رجاؤه ما خاف، فالرجاء والخوف يتلازمان فى قلب المؤمن.

ويعتدل الخوف والرجاء للتائب المستقيم فى التوبة، دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو فى سياق الموت فقال: «كيف تجدك»؟ قال: أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى، فقال: «ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا، وآمنه مما يخاف»[2].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه ابن ماجه.

وجاء فى تفسير قوله تعالى ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1] هو العبد يذنب الكبائر ثم يقول: قد هلكت، لا ينفعنى عملٌ.

فالتائب خاف، فتاب، ورجا المغفرة، ولا يكون التائب تائبًا إلا وهو راج خائف.

ثم إنَّ التائب حيث قيّد الجوارح عن المكاره واستعان بنعم الله على طاعة الله، فقد شكر النعم؛ لأن كلِّ جارحة من الجوارح نعمة، وشكرها قيدها عن المعصية واستعمالها فى الطاعة، وأىّ شاكر للنعمة أكبر من التائب المستقيم؟!

فإذن جَمَعَ مقَامُ التوبة هذه المقامات كلها، فقد جمع مقام التوبة: حال الزجر، وحال الانتباه، وحال التيقظ.

ومخالفة النفس، والتقوى، والمجاهدة، ورؤية عيوب الأفعال، والإنابة والصبر، والرضا، والمحاسبة، والمراقبة، والرعاية، والشكر، والخوف، والرجاء.

وإذا صحَّت التوبة النصوح، وتركَت النفس انجلت مرآة القلب، وبان قبح الدنيا فيها، فيحصل الزهد. والزاهد يتحقق فيه التوكّل؛ لأنه لا يزهد فى الموجود إلا لاعتماده على الموعود، والسكون إلى وعد الله تعالى هو عين التوكل.

وكلما بقى على العبد بقية فى تحقيق المقامات كلها بعد توبته يستدركه: بزهده فى الدنيا. وهو ثالث الأربعة.

أخبرنا شيخنا، قال: أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون، قال: أخبرنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة قال أخبرنا أبو عمرو محمد بن العباس، قال: أخبرنا أبو محمد يحيى بن ساعدة قال: حدثنا الحسين بن الحسن المروزى، قال: حدثنا عبد الله بن المبارك، قال حدثنا الهيثم بن جميل قال: أخبرنا محمد بن سليمان، عن عبد الله بن بريدة، قال: قدم رسول الله ﷺ من سفر، فبدأ بفاطمة، رضى الله عنها فرآها قد أحدثت فى البيت سترًا وزوائد فى يديها، فلما رأى ذلك رجع ولم يدخل..

ثم جلس، فجعل ينكت فى الأرض ويقول: مالى وللدنيا.. مالى وللدنيا..

فرأت فاطمة أنه إنما رجع من أجل الستر، فأخذت الستر والزوائد وأرسلت بهما مع بلال وقالت له:

اذهب إلى النبى ﷺ، فقل له: قد تصدقْت به فضعه حيث شئت.

(١) آية رقم ١٩٥ من سورة البقرة.

فَأتى بِلالٌ النبيَّ ﷺ ، فقال : قالت فاطمة قد تصدقت به فضعه حيث شئت .

فقال النبى ﷺ: «بأبى وأمىّ قد فعلت، بأبى وأمى قد فعلت. اذهب فبعه».

وقيل فى قوله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1] قيل: الزهد فى الدنيا.

سئل أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه عن الزهد؟ فقال: هو أن لا تُبالى بمن أكَل الدنيا مؤمن أو كافر.

وسئل الشبلى عن الزهد، فقال: ويلكم، أىّ مقدار لجناح بعوضة أن يُزهد فيها؟!

وقال أبو بكر الواسطى: إلى متى تصول بترك كنيف؟ وإلى متى تصول بإعراضك عمّا لا تزن عند الله جناح بعوضة؟

فإذا صحّ زهد العبد صحّ توكله أيضًا؛ لأن صدق توكله مكّنه من زهده فى الموجود.

فمن استقام فى التوبة، وزهد فى الدنيا، وحقّق هذين المقامْين استوفى سائر المقامات، وتكوّن فيها، وتحقّق بها.

وترتيب التوبة مع المراقبة وارتباط إحداهما بالأخرى: أن يتوب العبد، ثم يستقيم فى التوبة حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئًا، ثم يرتقى من تطهير الجوارح عن المعاصى إلى تطهير الجوارح عمّا لا يُعنى، فلا يسمح بكلمة فضول ولا حركة فضول، ثم ينتقل للرعاية والمحاسبة من الظاهر إلى الباطن، وتستولى المراقبة على الباطن: وهو التحقق بعلم القيام بمحو خواطر المعصية عن باطنه، ثم خواطر الفضول.

فإذا تمكّن من رعاية الخَطرَات عصم عن مخالفة الأركان والجوارح، وتستقيم توبته. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾[2].

أمره الله تعالى بالاستقامة فى التوبة أمرًا له ولأتباعه وأمّته.

وقيل: لا يكون المريد مريدًا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئًا عشرين سنة.

---

(١) آية رقم ٧ من سورة الكهف.

(٢) آية رقم ١١٢ من سورة هود.

ولا يلزم من هذا وجود العصمة، ولكن الصادق التائب فى النادر إذ ابتلى بذنب ينمحى أثر الذنب من باطنه فى ألطف ساعة لوجود الندم فى باطنه على ذلك. والندم توبة فلا يكتب عليه صاحب الشمال شيئًا.

فإذا تاب توبةً نصوحًا، ثم زهد فى الدنيا حتى لا يهتم فى غَدائه لعشائه، ولا فى عشائه لغدائه، ولا يرى الادِّخار، ولا يكون له تعلق هم بغدٍ، فقد جمع فى هذا الزهد، والفقر، والزهد أفضل من الفقر، وهو فقر وزيادة، لأن الفقير عادم للشىء اضطرارًا، والزاهد تارك للشىء اختيارًا.

وزهده يحقِّق توكله، وتوكّله يحقق رضاه، ورضاه يحقق الصبر، وصبره يحقق حبس النفس وصدق المجاهدة وحبس النفس لله يحقّق خوفه، وخوفُه يحقق رجاءه. ويجمع بالتوبة والزهد كلٍّ المقامات.

والزهد والتوبة إذا اجتمعا مع صحة الإيمان وعقوده وشروطه يُعْوز هذه الثلاثة رابع به تمامها وهو «دوام العمل» لأن الأحوال السنية ينكشف بعضها بهذه الثلاثة، وتيسير بعضها متوقِّف على وجود الرابع وهو «دوام العمل» وكثير من الزهّاد المتحققين بالزهد، المستقيمين فى التوبة تخلّفوا عن كثير من سنىّ الأحوال، لتخلّفهم عن هذا الرابع. ولا يراد الزهد فى الدنيا، إلا لكمال الفراغ المستعان به على إدامة العمل لله تعالى.

والعمل لله: أن يكون العبد لا يزال ذاكرًا أو تاليا، أو مصليا أو مراقبًا، لا يشغله عن هذه إلا واجب شرعى، أو مُهمّ لابَدَّ منه طبيعى.

فإذا استولى العمل قلبى على القلب مع وجود الشغل الذى أدَّاه إليه حكم الشرع لا يفتر باطنه عن العمل. فإذا كان مع الزهد والتقوى متمسكًا بدوام العمل فقد أكمل الفضل، وما آلى جهدًا فى العبودية.

قال أبو بكر الوراق: من خرج من قالب العبودية صنُع به ما يصنع بالآبق.

وسئل سهل بن عبد الله التسترى: أىّ منزلة إذا قام العبد بها قام مقام العبودية؟

قال: إذا ترك التدبير والاختيار.

فإذا تحقّق العبد بالتوبة، والزهد، ودوام العمل لله يشغله وقته الحاضر عن وقته الآتى، ويصل إلى مقام ترك التدبير والاختيار، ثم يصل إلى أن يملك الاختيار، فيكون اختياره من اختيار الله تعالى؛ لزوال هواه ووفور علمه وانقطاع مادة الجهل عن باطنه.

قال يحيى بن معاذ الرازى: ما دام العبد يتعرف يقال له: لا تختر، ولا تكن مع اختيارك، حتى تَعرف، فإذا عَرف وصار عارفًا يقال له: إن شئت اختر، وإن شئت لا تختر، لأنك إن اخترت فباختيارنا اخترت، وإن تركت الاختيار، فباختيارنا تركت الاختيار. فإنك بنا فى الاختيار وفى ترك الاختيار.

والعبد لا يتحقق بهذا المقام العالى والحال العزيز — الذى هو الغاية والنهاية: وهو أن يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار — إلا بإحكامه هذه الأربعة التى ذكرناها؛ لأن ترك التدبير فناء، وتمليك التدبير والاختيار من الله تعالى لعبده وردّه إلى الاختيار تصرف بالحق، وهو مقام البقاء، وهو الانسلاخ عن وجود كان بالعبد إلى وجود يصير بالحق، وهو العبد ما بقى عليه من الاعوجاج ذرّة، واستقام ظاهره وباطنه فى العبودية، وعَمر العلم والعمل ظاهره وباطنه، وتَوطن حضرةَ القرب بنفس بين يدى الله عزّ وجلّ متمسكةٍ بالاستكانة والافتقار، متحققة بقول رسول الله ﷺ: «لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين فأهلك، ولا إلى أحد من خلقك فأضيع، أكلأنى كلاءة الوليد ولا تتخل عنى»[1].

---

(١) رواه الطبرانى.